

أ. سليم خيراني

جامعة الجزائر

أ. جمال عبد الكريم

جامعة الجلفة

الحمد لله رب العالمين جعل ذكره حقائق للمؤمنين، ومناجاته غذاء لأرواح المتقين، والتضرع إليه عز العالمين، نحمده على نعمه، ونسأله المزيد من كرمه، ونصلي ونسلم على من بُعث رحمة للعالمين.

ما هو المخطوط ؟

المخطوط اصطلاحاً: هو الكتاب الذي خُط باليد، في أي نوع من أنواع الفنون والعلوم، سواء كان على ورق أو على أية مادة أخرى كالجلود والألواح الطينية القديمة والحجارة وغيرها. وقد يكون للمخطوط نُسخ مُتعددة (نُسخ المخطوط)، والتعامل معه يكون بالورقات وليس الصفحات، فنقول مثلاً: يضم المخطوط 50 ورقة وليس صفحة، ولكل ورقة وَجْهٌ وظَهْرٌ. لا حرم أن المخطوطات وعاءٌ للفنون التراثية الأصيلة التي حازت قصب السبق، وسعة الذرع؛ ونالت الإمامة العظمى عند القدماء؛ ذلك أن شرف العلم من شرف المعلوم، وحصول الأُنس بالتراث العربي الإسلامي من منظور التحقيق والتدقيق موجب لإعمال الفكر، وإجالة النظر في أصول العربية وسنتها. ولعل من الدواعي التي حركت الولوج في تخوم عالم المخطوطات، الحاجة الملحة لكشف اللثام عن مكونات هذا الدرر النفيسة، ولا غرو أن الغوص في المخطوطات تحقيقاً وإخراجاً هو قيمة معرفية مضافة لسلسلة البحوث الرصينة التي تحاول إيجاد مكانة متواضعة في المكتبة العربية والإسلامية. لقد تعرّضت المخطوطات العربية لأبشع المآسي أثناء الحروب والفتن المتكررة في العالم الإسلامي، ولاشك أن ما وصل إلينا من ملايين المخطوطات العربية والإسلامية قليل للغاية وقد تضافرت عوامل عدة في صناعة هذه المأساة ولعل من أهمها :

1- سقوط بغداد على يد التار بزعامة هولاكو عام 1258 م حيث دمرت الملايين من المخطوطات من مكتبات بغداد سواء بالحرق أو بالإلقاء في نهر دجلة الذي تحولت مياهه إلى اللونين الأسود والأحمر من مداد الكتب ودماء القتلى.

2- الغزو المغولي بقيادة تيمور لنگ الذي حكم ما بين 1370 - 1405 م الشهير بالأعرج الذي دمر في طريقه الأخضر واليابس، ومنها المخطوطات، مثل ما فعله في خراسان وأصفهان والعراق والشام والأناضول (تركيا) والهند.

3- سقوط غرناطة عام 1492 م، والذي طفت فيه عشرات الآلاف من المخطوطات بقدرها لقل الباحثين إحصاءاً بقياسها ألف مخطوط حيث كان أول عمل قامت به قوات الملكة إيزابيل وزوجها فرناندو عند زواجها آخر المعامل العربية، غرناطة عام 1492 م، هو حرق المخطوطات العربية، وشهدت ساحة باب الرملة، المعروفة اليوم باسم (باب الرصيف) في غرناطة أكبر عملية لحرق الكتب العربية، وصدر أمر بمعاقبة كل من ضبط بكتاب عربي، فعقد الجميع إلى حرق كتبهم، ويقال إن الكتب العربية بقيت فترة طويلة تستعمل في غرناطة القديمة.

4- السراقات المتتالية أثناء الحروب الصليبية وفي عصر الاستعمار الحديث، حيث تعامل المستشرقون مع المخطوطات كغنائم حرب.

5- غياب الوعي العام - عند معظم العرب والمسلمين - بأهمية المخطوطات وقبعتها الحضارية والعلمية.

6- الإهمال في حفظ المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة.

7- بيع المخطوطات من بعض مالكيها للغربيين بسبب الفقر والعوز .
انتشار المخطوط العربي في الدول الغربية:

لقد انتقلت المخطوطات العربية إلى الدول الغربية على مراحل متعددة، عن طريق النهب والسلب، بداية من الحملات الصليبية (1096 - 1291 م) وصولاً إلى الاستعمار الحديث، مع وجود عوامل أخرى منها:

- الدافع التجاري (نفاسة المخطوطات القديمة)، والذي كان يمارسه تجار المخطوطات على ضفاف الفوس من أصحاب الخزائن الخاصة، مستغلين فقرهم وعوزهم، ولكن المال المُكْتَسَب من بيع المخطوطات لم يكن يوازي القيمة الحقيقية الموجودة في هذه الكنوز العلمية.

- الدافع الثقافي والعلمي، وهو الاستفادة من الحضارة العربية الإسلامية والعمل على نقلها إلى اللغات الأوربية، وهذا ما دفع المستشرقين للاستيلاء على المخطوطات بطرق مشروعة وغير مشروعة.

إن هؤلاء المستشرقين هم أول من فَكَّرَ في التحقيق - بداية عصر النهضة -، فقد أتقنوا لغات الشرق وأرادوا أن يدرسوا ثقافته المتنوعة والواسعة، فمنهم من كانوا علماء موضوعيين، ومنهم ما دون ذلك (النحاملون)، الذين ينطلقون من الإساءة إلى التراث العربي الإسلامي، لكن الجميع خَدَمَ - بطريقة أو بأخرى - التراث العربي الإسلامي، واستطاعوا أن يخرجوا مخطوطات متنوعة إلى النور، بعد أن كانت هذه المخطوطات ترتدي الغبار وتتعطرُ بالرطوبة وتستأنسُ بالأرضة ولم تر نور الشمس منذ قرون.

إن تهريب المخطوطات من بعض البلدان العربية والإسلامية، بطريقة أو بأخرى، أفضل من تركها هيئة الأرضة والحشرات التي تقضي عليها، (وأنا هنا لست من مشجعي السلب والتهريب، ولكن من باب " بضرورة نافعة "، فانتقال المخطوطات إلى الدول الغربية - بكل موضوعية - كان سبباً في حفظها، حيث

وُضِعَتْ في أماكن آمنة معقمة مرتبة ومفهرسة، ثم إذا طلبها الباحثون تُسَلَّمُ لهم (مباشرة أو مصوّرة) بلا متاعب أو صعوبات، مقارنة مع ما يحدث - للأسف - في بعض البلدان العربية والإسلامية من إهمال للمخطوطات من ناحية الترميم والتعقيم والترتيب والفهرسة، مع سوء معاملة الباحثين وصعوبة الوصول إلى الضالة المنشودة من المخطوطات.

وأما بالنسبة لحجم التراث العربي المخطوط في الغرب، فلا يزال مبعثراً في جميع أنحاء العالم في المكتبات العامة والخاصة والمتاحف والكنائس والأديرة، ولم يُعرف حتى الآن عدد هذه المخطوطات على وجه التدقيق، سواء في المكتبات الأميركية والأوروبية، ويقدر الأستاذ كوركيس عواد عدد المخطوطات العربية المنتشرة في المكتبات الأميركية أكثر من 24 ألف مخطوط¹، وأما في أوروبا، فإنها لا تقل عن 60 ألف مخطوط، هذا غير العدد الذي بأيدي الناس، فألمانيا مثلاً تُعد أغنى البلدان الأوروبية بالمخطوطات العربية، وفيها نحو 14250 مخطوط²، تليها بريطانيا، وفيها 14 ألف مخطوط³، وفي روسيا نحو 12 ألف مخطوط⁴، إضافة إلى فرنسا، إيرلندا، إيطاليا، هولندا، النمسا، إسبانيا، بلغاريا، الدانمرك، النرويج، السويد، والفاتيكان، وفيها ما بين 3 آلاف إلى 10 آلاف مخطوط⁵.

أمام هذا الكمّ الهائل من المخطوطات العربية في البلدان الغربية، نقف مذهولين لا نعرف ماذا نقول أو نفعل، فهذا همّ كبير وعارّ عظيم وحزن دائم يلاحقنا متى سافرنا إلى الغرب وتصفّحنا مخطوطاتنا العربية، فهل ستستمرّ هذه المعاناة سنوات أخرى؟

من هذا المنطلق أتقدم بمقترحات أساسية عساها تعيد بعض الأمل في استرجاع تراثنا التليد:

1 - تكوين لجنة دولية تهتمّ بالمخطوطات تضم أعضاء من كل الدول العربية والإسلامية، تحمل اسم: "اللجنة العالمية للمخطوطات العربية"، والتي سيُسند لها مهام المطالبة باسترجاع كل المخطوطات العربية الإسلامية والمسيحية من الدول الأجنبية، والمشاركة في المحافل الدولية، خاصة في ملتقيات منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).

2 - تمويل اللجنة العالمية للمخطوطات العربية يكون من الدول الأعضاء.

3 - إنشاء مكاتب ومواقع إلكترونية لـ: اللجنة العالمية للمخطوطات العربية في كل الدول المعنية.

4 - إنشاء مراكز بحوث مُجهّزة في كل الدول المعنية، تعمل على:

¹ : فهرس المخطوطات العربية في العالم، كوركيس عواد، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، 1984، 2/ص: 339 وما بعدها.

² : المرجع نفسه، 1 / 154 - 175.

³ : المرجع السابق، 2 / 261 وما بعدها.

⁴ : المرجع السابق، 1 / 107 وما بعدها.

⁵ : المرجع السابق، 1 / الصفحات: (133، 231، 253، 274، 371، 437) وما بعدها.

2 / الصفحات: (110، 117، 292، 293، 330) وما بعدها.

Manuscripts arabes, E. BLOchet, editions Ernest Leroux, France, 1925, p: 359

Manuscripts arabes de l'ESCURIAL, Hartwing Derenbourg, editions Ernest Leroux, France, 1884, tome:

- أ - فهرسة كل المخطوطات لكل دولة واستنساخها بالتصوير الرقمي.
 - ب - التنسيق بين مراكز البحوث وتبادل المعلومات.
 - ج - ربط مراكز البحث بشبكة الأنترنت.
 - د - إنشاء قطاع معلوماتي مركزي لتأمين المعلومات الرقمية
 - 5 - الاتفاق على بروتوكول موحد ومقنن يتيح مرونة الاتصال وتبادل المعلومات بين مراكز البحوث على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.
 - 6 - إنشاء مجلة ثقافية وقناة فضائية خاصة بالمخطوطات.
 - 7 - تعميم مقياس تحقيق المخطوطات في كل جامعات الدول العربية والإسلامية.
 - 8 - تدريب طلبة الجامعات - المهتمين بالتراث - لتعلم تقنيات تحقيق المخطوطات في إطار الجامعات الصيفية والدورات التكوينية والملتقيات الموسمية.
 - 9 - إنشاء جوائز تحفيزية لأفضل الأعمال في تحقيق المخطوطات.
 - 10 - عقد الملتقيات والندوات بشكل منتظم، مع إشراك أصحاب الخزائن الخاصة في كل الدول المعنية لخلق بيئة مناسبة للتعاون المشترك والاستفادة من الموروث العربي الإسلامي.
- إن المخطوطات العربية أمانة في أعناقنا جميعا، فهي جزء من تاريخنا الذهبي وحضارتنا البراقة، ولا ينبغي لأي فرد منا أن يفرط في تاريخه وحضارته، فالشعارات المستعملة هنا وهناك لا تكفي، بل يجب تكثيف الجهود على مستوى كل الأصعدة (سياسيا وإعلاميا وثقافيا واجتماعيا) حتى نصل إلى غايتنا المنشودة.